العذر بالجهل في الجانب العقدي وأهميته في تقويض التطرف

أ.م.د سامي عويد أحمد
جامعة تكريت / كلية التربية الأساسية/ الشرقاط

ملخص البحث

يسلط هذا البحث الضوء على اهم المسائل التي تتعلق باسلوب من اساليب الدعوة الى التغيير والاصلاح العقائدي والفكري الا وهو مسالة الاعذار بالجهل، والذي هو من الاهمية بمكان بسبب علاقته الوطيدة بين المصلح وبين المجتمع الذي يروم تقويم وتصحيح افكار ومفاهيم خاطئة متداولة بالمجتمع، وبسبب ارهاصات والاحتكاكات بين الداعي والمجتمع والتي غالبا ما ينتج عنها اخفاقات نفسية ومجتمعية تعرقل الاصلاح والتقويم، فجاء هذا البحث ليبين اهم ما يمكن بواسطته تجاوز تلك الاخفاقات والسلبيات والتي تقوم على حماية الحوار والمناقشة والشد والجذب بسياج الاعذار وعدم التسرع بالحكم على الغير ووضعه في محل الاتهام .

Research Summary

This research highlights the most important issues related to the method of advocating for change and ideological and intellectual reform, which is the question of excuses in ignorance, which is important because of its close relationship between the reformer and the society that aims to strengthen and correct the misconceptions and misconceptions in the community, and because of the tensions and friction between Da'i and society, which often result in psychological and societal failures that hinder reform and evaluation, this research shows the most important means by which to overcome those failures and negatives, which are based on the protection of dialogue and discussion and tension and attraction fence excuses and not rushing to rule M on others and put it in the place of accusation.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين واشهد الا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله صلى ال له تعالى عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين وسلم تسليما كثيرا .

وبعد: فان وظيفة التصحيح والتغيير للمفاهيم والتصورات العقائدية لدى الناس هي وظيفة لابد فيها من الاحتكاك المباشر معهم، والتعامل بلا واسطة مع عقولهم، والمساس بلا قيود مع ميولهم وتوجهاتهم الفكرية والنفسية، وهي على ذلك من الحساسية بمكان تستدعي من الداعي او المربي

أن يراعي اثناء مزاولته لهذه الوظيفة الخطيرة- وسائل واساليب مهمة لا يمكن تجاهلها أو التغاضي عنها، او الاعتياض لها بغيرها .

ومن ذلك تصنيف الناس حال دعوتهم من حيث العلم، او الجهل فان لكل صنف احكامه واساليبه، ولما كان حال كثير من الناس هو التقليد للسابقين من الاباء والذي مبناه على الجهل لما يخالف ما كان عليه اسلافهم كان لابد من الوقوف على كيفية التعامل مع تلك الاحوال، والاساليب التي تتعلق بها؛ لكي تكون دعوة مثمرة بعيدة عن الاخطاء والشطحات المسيئة، والتي عادة ما تنتج بسبب الجهل لهذه الامور فالجهل عدو للطرفين دعاة ومدعوين .

فجاء هذا البحث ليسلط الضوء على تلك الاحوال والاساليب من خلال اعتبار أن الاصل في المدعوين المخالفين هو الجهل وما يترتب على هذا الاصل من أحكام، والتي من أهمها الاعذار للمخالف الجاهل، وما ينبني على تلك الاحكام من تصرفات، وذلك من خلال عدة مطالب، المطلب الاول: في معنى العذر بالجهل في العقائد. والمطلب الثاني: بيان أن الاصل في دعوة الناس الاعذار لهم بالجهل . والمطلب الثالث: أظهرت أن العذر للجاهلين من احب الامور الى الله ﷻ . والمطلب الرابع: كان في اعذار الجاهلين برفع العقوبة قبل قيام الحجة عليهم. في حين أن المطلب الخامس: أوضحت فيه عذر الجاهل في الاعتقاد بالعفو عنه وان ظلم وتعدى. والمطلب السادس: هو في عذر الجاهلين في الاعتقاد بالصبر على أذاهم ودوره في السلم المجتمعي. أما المطلب السابع: فسلكت فيه اعذار المخالف في الاعتقاد بمقابلة أذاه بالاستغفار والدعاء له. وأخيرا المطلب الثامن: ختمته ببيان أن من الاعذار للمخالفين مقابلة أذاهم بالسلام والتحية .

المطلب الاول: معنى العذر بالجهل في العقائد

أولاً: تعريف العذر لغة واصطلاحاً

١- تعريف العذر لغة:

ان لمادة العذر اللغوية معاني كثيرة لا تندرج تحت اصل مشترك الا ان المعنى المقصود ببحثنا يدور حول كونه اسمٌ جاء من عذرته بما صنع عَذْراً ومَعْذِرة، وعذرته من فلان، أي لمته، ولم ألم هذا، والعذر ايضاً الحجة التي يعتذر بها[١] . فالمعنى قائم على عدم الملامة وترك الاحتجاج ونفي المؤاخذة على المخالفة الناتجة عن الجهل .

٢- تعريف العذر اصطلاحاً

جاء في التعاريف ان العذر هو تحري الإنسان كل ما يمحو به ذنوبه بقوله لم أفعل، أو فعلت؛

(١) ينظر، تاج العروس من جواهر القاموس: ١٢/٥٤٠.

لأجل كذا ويحتج بما يخرجه عن كونه ذنبا، أو فعلت، ولا أعود[١] .

ثانياً: تعريف الجهل لغة واصطلاحاً

١- تعريف الجهل لغة: "الجهلُ نقيض العِلْم تقول: جَهِلَ فلانٌ بهذا الأمر، والجَهالةُ أن تفعلَ فِعلاً بغيرِ عِلْمٍ، ويقال للمفازة التي لا علم بها: مجهل"[٢].

٢- تعريف الجهل واصطلاحاً

والجهل نوعان: الاول: البسيط: وهو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالما .

والثاني المركب: وهو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق سمي به لأنه يعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه فهذا جهل آخر قد تركبا معا[٣].

المطلب الثاني: الاصل في دعوة الناس الاعذار بالجهل

ينقسم الناس من حيث جهلهم بما يخالف القضايا الاعتقادية الى قسمين:

القسم الاول: المخالفون من أهل الجهل بالاعتقاد الصحيح ممن ينتسب الى غير دين الاسلام، أو لا يدين بدين، ولم يكن يعلم أن دينًا يخالف ما هو عليه فهذا تتعلق به ثلاثة امور:

١- أحكام دينية، وهي أن نجري عليه الأحكام الظاهرة في الدنيا، فلا تؤكل ذبيحته، ولا يناكح، ولا يدفن في مقابر المسلمين، وعدم موالاته لما تلبس به من النقض لدين الاسلام.

٢- أحكام دنيوية، والمتضمنة صلتهم والبر بهم والاحسان اليهم واستمالتهم والتأليف لقلوبهم، ومحبة هدايتهم، والاستعانة بهم على المصالح الدينية والدنيوية .

٣- أحكام آخروية، وهي أنه يمتحن في الآخرة بما يشاء الله ﷻ والله أعلم بما كانوا عاملين.

فهؤلاء يعذرون من جهتين: الاولى، اعذارهم بدعوتهم وبيان المحجة عيلهم، وتعليمهم ما يجهلون بالأساليب السليمة بما يقطع الحجة لهم على الله تعالى . والثانية، اعذارهم يوم القيامة بإرسال من يختبر صدق طلبهم للحق باتباع المرسل من معصيته.

القسم الثاني: وهو المخالف الذي يدين بدين الإسلام ولكنه عاش على أفكار واعتقادات يجهل أنها مناقضة للإسلام من غير أن ينبهه أحد على ذلك فهذا تجري عليه أحكام الإسلام ظاهرًا من موالاته، وأكل ذبيحته، ومناكحته، ودفنه في مقابر المسلمين فهو معذور من ثلاثة وجوه:

الاول، معذرته بإجراء احكام الاسلام عليه وعدم وصفه بأحكام الكفر والردة وأنه باق على اسلامه.

---

(١) ينظر، التعاريف: ٥٠٨.

(٢) ينظر، كتاب العين: ٣٩٠/٣، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٤٨٩/١.

(٣) ينظر، كتاب الكليات: ٥٣٩.

الوجه الثاني، معذرته بتعليمه وتبيين ما وقع فيه من مخالفات بالضوابط الشرعية عن طريق من له أهلية الدعوة بالأساليب التي لا تنفير فيها اقامة للحجة وقطعا للعذر.

الثالث: معذرتهم يوم القيامة بعدم المؤاخذة ان لم يتيسر لهم التعليم والبيان، ووجد مانع يمنعهم من الوصول للحق، وقد دل على ذلك الكتاب ، والسنة ، وأقوال أهل العلم.

١- دلالة الكتاب: قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}(١). وقوله : {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ}(٢). إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الحجة لا تقوم إلا بعد العلم والبيان.

٢- دلالة السنة: فعن حذيفة بن اليمانﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله ﷻ في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس والشيخ الكبير والعجوز . يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله، فنحن نقولها)) فقال له صلة: ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثا . كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: ياصلة تنجيهم من النار . ثلاثا(٣).

٣- دلالة كلام العلماء:

أ- يقول الامام الشافعي رحمه الله :"لله أسماء وصفات لا يسع أحدا ردها ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر واما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر"(٤).

ب- قال القاضي أبو بكر ابن العربيّ رحمه الله: "فالجاهل والمخطئ من هذه الأمة ، ولو عمل من الكفر والشرك ما يكون مشركاً أو كافراً ، فإنه يعذر بالجهل والخطأ ، حتى تتبين له الحجة ، الذي يكفر تاركها ، بياناً واضحاً ما يلتبس على مثله ، وينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام مما أجمعوا عليه إجماعاً جلياً قطعياً ، يعرفه كل من المسلمين من غير نظر وتأمل"(٥).

---

(١) [إبراهيم: ٤].

(٢) [التوبة: ١١٥]

(٣) سنن ابن ماجه: ١٣٤٤/٢.

(٤) فتح الباري: ٤٠٧/١٣.

(٥) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) (ص: ٣٤٤)

جـ- يقول ابن قدامة رحمه الله:" وكذلك كل جاهل بشيء يمكن أن يجهله لا يحكم بكفره حتى يعرف ذلك وتزول عنه الشبهة ويستحله بعد ذلك"(١).

د- يقول ابن تيمية رحمه الله: "وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرًا مما يبعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول"(٢) .

وإذا كان هذا مقتضى دلالة نصوص الكتاب ، والسنة ، وكلام أهل العلم فهو مقتضى حكمة الله ﷻ، ولطفه، ورأفته، ورحمته فلن يعذب أحدًا حتى يعذر إليه ، بإقامة الحجة، والعقول لا تستقل بمعرفة ما يجب لله ﷻ من الحقوق، ولو كانت تستقل بتلك المعرفة لم تتوقف الحجة على إرسال الرسل(٣).

وبناء على كل ما تقدم من النصوص والاثار وكلام اهل العلم يمكن الجزم بأن الاصل مع الناس -في دعوتهم ومحاولة التصحيح لتصوراتهم العقيدية الخاطئة- هو التعامل معهم بالعذر لهم في جهلهم، والشفقة بهم فيما هم فيه من تلك المفاهيم المغلوطة، وذلك لان الغالب على الناس انهم يجهلون ما يصلح لهم في القضايا الاعتقادية بسبب البعد عن مصدر التصحيح، مع التلقين لهم من قبل من تكمن مصلحته في بقائهم على هذا الجهل وضمان عدم خروجهم من بوتقته الضيقة لمصالح شخصية، وغايات نفعية تحول بين الناس وبين التغيير النافع لهم في حياتهم وبعد مماتهم، وهذا الاعذار للمدعوين يقتضي من الداعي ان يتصف بالرحمة التي هي اساس الاعذار، فلا اعذار بلا رحمة في قلب الداعي؛ ولأجل ذلك كانت هي العلة والمقتضى الموجب لها .

المطلب الثالث: العذر للجاهلين من احب الامور الى الله ﷻ

لما كان الله تعالى متصف بالملك المطلق، والقيومية التامة على خلقه، فليس لاحد ان يسأله تعالى عما يفعل، وهم يسئلون؛ لذا لا يمكن ان يحتج محتج على الله ﷻ، ويعترض عليه بعدم ارسال الرسل، وانزال الكتب خاصة وان الله ﷻ قد اخرج جميع الناس اولهم وآخرهم من صلب ابيهم آدم عليه السلام واخذ العهد عليهم ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا كما قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ

(١) المغني: ٨٣/١٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤٠٧/١١.

(٣) ينظر: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين: ٢/ ١٣٠- ١٣٢.

بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}(١).

ومع كل ما تقدم الا أن الله ﷻ بمحض فضله على الناس ورحمته بهم ارسل اليهم الرسل ليبشروهم وينذروهم، وجعل سبحانه عدم ارسال الرسل حجة للناس على الله تعالى الا يعذب احدا منهم حتى يبعث له رسولا محبة منه سبحانه لإعذار خلقه، ومنحهم اكثر من فرصة علهم يرجعون الى مولاهم الحق .

وهو ما دل عليه قوله ﷻ : {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}(٢). أي مبشرين لأهل الطاعة بالجنة، ومنذرين للعصاة بالنار لئلا يكون للناس معذرة يعتذرون بها قائلين: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا، يبين لنا شرائعك، ويعلمنا ما جهلنا من أحكامك؛ لقصورنا عن إدراك كلياتها، وإنما جعلها الله تعالى حجة مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجة في فعل من أفعاله، بل له سبحانه أن يفعل ما يشاء كما يشاء؛ للتنبيه على أن المعذرة في القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته، ومحبته لإعذار عباده بمنزلة الحجة القاطعة التي لا مرد لها(٣).

ومما يزيد المسألة وضوحا ما رواه البخاري أن سعد بن عبادةﷺ قال: لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال:((أتعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله أغير مني ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد الله الجنة))(٤).

فدل قول النبي ﷺ: ((لا أحد احب إليه العذر من الله ﷻ)) بعد قوله: ((لا أحد أغير من الله ﷻ)) منبها لسعد بن عبادة ﷺ على ان الصواب خلاف ما ذهب إليه في ذلك، ورادعا له، ومنعه عن الاقدام على قتل من يجده مع امرأته، فكأنه قال: إذا كان الله تعالى مع كونه أشد غيرة منك يحب الاعذار لعباده، ولا يؤاخذ أحدا الا بعد اقامة الحجة عليه، فكيف تقدم أنت على القتل في تلك الحالة، فالذي ينبغي للعبد أن لا يبادر بالقتل، ويضعه في غير موضعه، فإن الله تعالى لم يعاجل المخالفين بالعقوبة مع أنه لو عاجلهم كان ذلك عدلا منه سبحانه وتعالى(٥).

---

(١) [الأعراف: ١٧٢] .

(٢) [النساء: ١٦٥] .

(٣) ينظر، تفسير أبي السعود: ٢٥٦/٢.

(٤) صحيح البخاري: ١٢٣/٩.

(٥) ينظر، فتح الباري: ٤٠٠/١٣، وشرح النووي على مسلم: ١٣٢/١٠.

وتأسيساً لهذا الاصل فان على المصلح والداعية للإصلاح والتقويم الفكري، او العقائدي أن يجعل نصب عينيه محبة الاعذار للناس لجهلهم، وأن يقابل صدهم واعتراضهم بل وأذيتهم بالشفقة والرحمة بهم بناءً على جهلهم بما ينفعهم، وقصور عقولهم عن ادراك مصالحهم مع اشاعة روح التسامح والتعايش المؤسس على المسالمة والتعاون .

في حين ان دعوة المخالفين مع خلو قلب الداعي والمصلح والمربي من الشفقة عليهم، ومحبة اعذارهم على جهالتهم عند صدهم واعتراضهم على تغيير الاخطاء في مفاهيمهم، فان هذا الفراغ من المحبة للإعذار سيملأ مكانه –بمرور الوقت– كراهية للمخالفين ومحبة الانتقام منهم مما سيئول في نهايته الى عواقب وخيمة: اما استيئاس الداعي وبالتالي نهاية دعوته، أو جنوحه الى اساليب اخرى في الدعوة تقوم على مقابلة العنف بالعنف، ومقابلة أذى المدعو بأذى الداعي مما يؤدي الى تحويل دور الدعوة في التغيير والتقويم من مسرح المعرفة والتعليم للخير والاصلاح الى ساحة عنف وتصفية حساب وتناثر أشلاء؛ وسببه هو الداعي والمصلح بإغفاله لهذا الاصل العظيم، فبدلا من أن يكون نعمة على مجتمعه تحول الى نقمة وغصة يشرق بها أمن الناس وسلمهم.

المطلب الرابع: اعذار الجاهلين برفع العقوبة قبل قيام الحجة عليهم

الاصل في الاعذار للجاهلين هو ان يجعل الله تعالى لهم حقا بفضله الا يعذبهم، ولا يعاقبهم على ما هم عليه من انحراف عقائدي حتى تقام عليهم الحجة بأفصح بيان وابلغه، وهي كتبه التي يبلغها من نصبهم الله تعالى من الرسل، او تنصبوا لذلك من أتباعهم، والاصل فيه قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا }[١].

وهذا الحق الالهي للجاهلين بمعذرتهم يقتضي ان يتعايش المربي والداعي –الى تصحيح الاخطاء العقيدية فضلا عما دونها – مع من يدعوهم بسلم وحلم، وان ينظر اليهم بعين العذر بتلمسه لهم، وهذه تربية قرآنية للنبي ﷺ قبل ان يمكنه الله تعالى في الارض وينتقل الى دور المربي والداعية الحاكم لا المحكوم، والرئيس لا المرؤوس، فكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة في دور الدعوة الفردية، والتي ليس من شأنه فيها ان يؤذن له في الحرب ، ولا يحل له قتال إنما شأنه أن يؤمر بالدعاء إلى الله تعالى والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهلين طيلة مدة العشرة أعوام قبل تمكينه، لإقامة حجة الله تعالى على من خالفه من مجتمعه ، ووفاء بوعد الله تعالى الذي امتن به بفضله في قوله: { وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا }[٢].

---

(١) [الإسراء: ١٥] .

(٢) ينظر، أحكام القرآن لابن العربي: ٤٢٩/٥.

وعلى هذا الاصل العظيم تنبني جميع مواقف المربي الداعية النفسية تجاه المدعوين، وهي المواقف التي مبناها على محبة التماس الاعذار لهم، وان يتهم نفسه بالتقصير في بيان التصحيح، وان يراجع اساليبه؛ فانه يقطع على النفس اليأس من استجابتهم، ويعطي مساحة كبيرة من التعايش السلمي مع الناس يتحرك بها المربي، ويعيد فيها الكرة بعد الاخرى مما يعينه على التخلق بأخلاق الحلم والرفق واللين، والتي هي من اعظم الاخلاق التي تسع قلوب الناس، وتحببهم منه مما يمهد لهم الخطوات الاولى لسلوك طريق الاستجابة، وترك المخالفة والاعتراض. لذلك فأن من اغفل هذا الجانب العظيم من التربية انه بهذا الاغفال يزري بنفسه، وبمن يدعوهم؛ لأنه مع دعوة الناس من غير محبة اعذارهم سيؤدي بالنتيجة حتما الى عدهم عدوا متربصا للدعوة يوجب استئصاله، وازاحته عن الطريق بوسائل العنف والارهاب .

المطلب الخامس: عذر الجاهل في الاعتقاد بالعفو عنه وان ظلم وتعدى

ان العفو عن المخالفين والصفح عنهم، وخاصة في المخالفات العقيدية هو أمر زائد على التماس العذر لهم؛ لأنه يتضمن اعذارهم لجهلهم، والعفو عن جهالتهم والصفح على أذاهم .

وان مقابلة الجاهلين بالصفح والعفو هو من اصعب الامور على نفس المربي والداعية؛ لأنها مقابلة من ظلمه وحاول قمعه بالعفو عن ظلمه، والصفح عن جهله، والاصل فيه ما بينه سبحانه بقوله: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[١].

فامر الله تعالى المؤمنين ان يسلكوا مع المخالفين في قضايا الاعتقاد سبيل العفو والصفح عما يحصل منهم من الجهل والعداوة، والعفو: الترك وعدم المؤاخذة بالذنب. والصفح: يكون بإزالة أثره من النفس، فكل من قام بحق، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، وخاصة فيما يتعلق بتصحيح العقائد، فلا بد أن يؤذَى، فما له الا العفو والصفح، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله ﷻ في ذلك كله[٢].

ومن تطبيقات هذا الاصل فعل النبي ﷺ وتأوله للآية الكريمة عملياً، فعن أسامة بن زيد ﷺ أن رسول الله ﷺ ركب على حمار وأردف أسامة بن زيد ﷺ وراءه يعود سعد بن عبادة ﷺ في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ﷺ ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ عليهم، ثم وقف

(١) [البقرة: ١٠٩] .

(٢) ينظر، الكشاف:١/ ٢٠٢، وتفسير القرطبي:٢/٧١، وتفسير ابن كثير:٢/١٨٠.

فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجلسنا ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة ﷺ : بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب يريد عبد الله بن أبي قال: كذا وكذا قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك لقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك فذلك فعل به ما رأيت فعفا عنه رسول الله ﷺ[١] .

ففي هذا الموقف الدعوي من الرسول المربي ﷺ دلالة ظاهرة وحجة باهرة أن العفو والصفح عن هذا الجاهل المتربص واشباهه –ممن يجمعون بين الصد عن الدعوة، والاستهزاء باهلها، وتأليب الناس على اصحابها– هو المقدم والاولى من المؤاخذة التي عادة ما يترتب عليها من المفاسد اعظم من المصالح المتوخاة من العفو والرفق الذي هو خير كله، ويؤتي اكله بكل حين بأذن ربه.

واعظم هذه المصالح هي المحافظة على السلم المجتمعي، والطرد لأدواء الضغينة والشحناء التي هي الهدف الاكبر للمتربصين من الاعداء، فإن غاية ما يريدونه بعد عجزهم عن الحجاج هو نشر الفوضى، واثارة نار الفتن بين الناس، والتي لا علاج لها بعد ذلك الا بالإجراء الوقائي الحاسم لمادة الشر وهي العفو عن أذى المخالف والصفح عن تجاوزاته حتى لا يعطى للمتربص فرصته في تمرير مخططاته .

ومن هذا المنطلق لو تعامل جميع المنتصبين للتصحيح الفكري، او العقائدي بهذه القاعدة لأخذ الجميع وقته في مراجعة ما عنده من خطأ وصواب فيما يدعو، او كيف يدعو؛ وذلك لان خلق العفو خلق رفيع المستوى يتجاوز فيه صاحبه كثير من العثرات، ويتغاضى فيه عن كثير من الزلات المتولدة من التعاطي مع المخالفين .

وفي نفس الوقت فان اهمال هذا الاصل في التصحيح العقائدي، او الفكري له من الخطورة بمكان من جزع الداعي وضيق صدره بالمخالفين وارادة الانتقام منهم وتعجيل العقوبة فيهم مما يترتب عليه انجراره خلف كل انحراف فكري وسلوكي قائم على ان الانفع في دعوة المخالفين ارهابهم وتخويفهم لإصلاحهم، وتصحيح عقائدهم وافكارهم بالترهيب والارعاب .

---

(١) صحيح البخاري: ٣٩/٦.

المطلب السادس: عذر الجاهلين في الاعتقاد بالصبر على أذاهم ودوره في السلم المجتمعي

يعد مقام الصبر على اذى المخالف وخاصة في باب العقائد واعذاره –والمبالغة في الاذى حتى ارادة القتل والاستئصال– من أعظم مقامات الداعي والمربي؛ لأنه لا يتوقع حصول الصبر على الاذى الا لمن نذر نفسه ووطنها على تحمل جميع انواع العدوان النفسي والجسدي في سبيل تصحيح الفكر، او الاعتقاد للمدعو المخالف، والتي هي من اسمى الاخلاق، واكرم السجايا التي يمكن ان يتحلى بها انسان، والقائمة على الاستعداد لبذل النفس مقابل ارادة الخير من غير مقابل لشخص يريد بالداعي السوء والشر، والداعي هنا بصبره على اذى المخالف يتوخى بصبره امرين: الاول المحافظة على سلم المجتمع وامنه واستقراره بالتماس العذر والصبر على أذى المخالف، والثاني المحافظة على ديمومة الدعوة، وحياتها بين الناس. في حين انه اغفل المحافظة على نفسه .

والاصل فيه قوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ}(١).

ففي الآية امر ونهي من الله تعالى لرسوله ﷺ أما الامر: ففيه وجوب الصبر والثبات على ان يمضي بما تقلده من اعباء الرسالة، وثقل أحمال النبوة، وأمره بالاقتداء بأولي الجد والثبات والصبر أصحاب العزائم المتصفون بالنوايا المحققة على الاعمال، أو الاقوال دون تردد، الذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد.

والمقصود بالعزم هنا: العزم على ما فيه تزكية النفس وصلاح الأمة، والذي يقوم بالصبر على المكاره، ويبعث على التقوى، مع شدة المراقبة بعدم التهاون عن محاسبة النفس(٢) .

واما النهي: ففيه وجوب ترك الضجر والنهي عن الاستعجال على قومه بالعذاب، وهو أن يدعو الله عليهم بتعجيله لهم؛ وذلك لأن الاستعجال ينافي صفة العزم؛ وفي تأخير العذاب اطالة مدة صبر الرسول ﷺ بكسب عزمه قوة الى قوته، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من النهي عن طلب تعجيل العذاب لهم جاء موضحا في آيات أخر كقوله تعالى: {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أولي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً}(٣)، وقوله تعالى: {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً}(٤)(٥).

ومن شواهد امتثال الرسول والمعلم والمربي الاكرم ﷺ للصبر على أذى المخالفين فكرياً وعقائدياً هو ما جاء عن خباب بن الأرت ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل

---

(١) [الأحقاف: ٣٥] .

(٢) ينظر: تفسير الطبري، ١٤٥/٢٢، وتفسير الكشاف، ٣١٧/٤، والتحرير والتنوير، ٢٦/ ٦٧.

(٣) [المزمل:١١] .

(٤) [الطارق:١٧] .

(٥) ينظر، مفاتيح الغيب: ٣١/٢٨، وأضواء البيان: ٢٤١/٧، والتحرير والتنوير:٢٦/ ٦٧.

الكعبة قلنا له ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا قال:((كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم، أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون))[١] .

فبين رسول الله ﷺ الموقف الصحيح من التعامل مع أذى المخالفين لنا في الاعتقاد والفكر، وذلك من خلال التأسي بمنهج الانبياء القائم على تحمل جميع أنوع الاذى ممن خالفهم، والصبر على ذلك من غير ضجر واستعجال الذي هو آفة كل عمل، ومصير صاحبه الفشل، وأن بالصبر والتأني والحلم والتروي هو المفتاح للتغيير نحو الاصلاح، واتمام الغاية في الدعوة والنجاح، وكل طريق غيره فانه يسلك بصاحبه الى مفاوز الهلاك ويسلمه مواطن العطب له وللمجتمع الذي يعيش فيه .

ومن دلائل هذا الحديث أجماع العلماء على أن من أكره على فعل الكفر، أو قول الكفر فاختار القتل، فأنه أعظم أجرًا عند الله ممن اختار الرخصة في ذلك[٢] .

وفي هذا أعظم دليل على ان الاولى شرعياً، والاصلح مجتمعياً، والمقدم مصلحياً، والانجح دعوياً هو الاستعداد للتضحية بالنفس، وأن يختار الداعية والمربي أن يكون المقتول لا القاتل، والمظلوم لا الظالم، وهو تماماً عكس ما يظنه كثير ممن انحرف نفسياً وسلوكياً حينما ظن ان الناس فسدوا فساداً لا يصلحهم الا القتل والارهاب، فهذا تماماً عكس المنهج القرآني، والفهم العملي النبوي لأسلوب الدعوة الى الاصلاح الفكري والعقائدي.

وعلى ما سبق تقريره نجد أن من الخطورة بمكان ان ينبري للإصلاح الفكري والعقدي من يجهل هذه الاصول في التعامل مع المخالفين، لما يترتب وترتب عليه من الاخلال العظيم، والفساد العريض في تقويض السلم والامن المجتمعي الناتج عن هذا الجهل المعيب، فلابد من ترسيخ هذا المفهوم في أذهان المنتسبين للتغيير والاصلاح الفكري والعقدي، والتي من أعظمها مفهوم الاستعداد للتضحية بالمال والنفس بكونهما ثمنا لضمان حياة الناس في قلوبهم اولا، وضمان سلمهم وامنهم في معاشهم ثانياً؛ ليصبح الداعي والمربي ينبوع حياة ومصدر اشراق يلقي بظلاله في ربوع الانسانية جمعاء قال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ

---

(١) صحيح البخاري: ٢٠١/٤.

(٢) ينظر، شرح البخارى لابن بطال: ٢٩٥/٨.

جَمِيعًا}[١].

المطلب السابع: اعذار المخالف في الاعتقاد بمقابلة أذاه بالاستغفار والدعاء له

ان هذه الصورة في اعذار المخالف المؤذي المعارض للإصلاح في مفاهيمه من اجمل واجل صور الاعذار على الاطلاق، واصدقها في النوايا والافعال، والتي تعبر عن وصول المتحلي بها الى مقاربة الكمال الأخلاقي، والارتقاء بالنفس الى أعلى منازل التحضر والمدنية التي يمكن أن يبلغها الانسان في تطوره المجتمعي.

والمغفرة: من الستر، وهو: التجافي عن الذنب والخطأ والحيف وعدم المؤاخذة بها في الظاهر والباطن، والاستغفار طلب المغفرة بالقول والفعل ، وقيل ان الاستغفار باللسان من دون تحقيق بالفعال هو فعل الكذابين، فالغافر هو الصابر على من آذاه، والمستغفر لغيره هو المتفضل الزائد على الصابر الغافر بدعائه لمن ظلمه وتعدى عليه بالمغفرة وعدم المؤاخذة، وهذه اخلاق الانبياء، ومن صدق في سلوك طريقهم ممن بلغ في التحضر اسناها، وفي المدنية اعلاها [٢].

ودليله قول الله ﷻ: { قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }[٣].

فبعد أن نبه الله تعالى عباده على دلائل توحيده، وانفراده بالإلهية والقدرة على الخلق والحكمة البالغة فيهم أتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة، والأفعال الحميدة التي تعين الداعي على دعوته والمدعو لقبولها بأن يغفروا للمخالفين الذين بلغ فيهم جهلهم حتى صار لهم صفة أنهم لا يخافون بأس الله تعالى ووقائعه ونقمه إذا هم نالوهم بالأذى والمكروه[٤].

وللأمر بالتجاوز والغفران عن المخالف والمعترض بل وحتى عن الصاد والمنفر فيه من المصالح الجمة الكثير والعظيم، وفي مقدمتها استبقاء الهدوء بين أفراد المجتمع هذا الهدوء الذي له اعظم التأثير في شيوع الافكار والتعاليم التي يراد لها التصحيح، والانسان المتحلي بصفة المغفرة عن زلات المعارضين هي من أعظم الصفات التي تأخذ بمجامع قلوبهم بالرغم على ما يبدونه من إعراض واستكبار واستهزاء، فتتهيأ نفوسهم إلى قبول دعوته بعد الممانعة والاعتراض[٥].

---

(١) [المائدة: ٣٢] .

(٢) ينظر، المفردات في غريب القرآن: ٣٦٢، وروح المعاني: ١٣/٢٤.

(٣) [الجاثية: ١٤].

(٤) ينظر، مفاتيح الغيب: ٢٢٦/٢٧، وتفسير الطبري، ٦٦/٢٢.

(٥) ينظر، التحرير والتنوير: ٣٣٨/٢٥.

وهذا الجمع بين المغفرة للمسيء، وبين طلب المغفرة له هو منهج نبوي رصين وسبيل دعوي متين لا محيد عنه ولا بديل له على الرغم من قساوته وشدة وطأته على الداعي والمصلح لما فيه من تحمل أذى المخالف مع مجاهدة النفس في دفع ارادة الانتقام بل ومخالفة داعيها الى الصفح وطلب المغفرة له، فمن ذلك موقف ابراهيم الخليل عليه السلام في قصة دعوة ابيه وحرصه على هدايته، ومقابلة الاب لدعوة الابن البار بالصد والوعيد، والتهديد بالقتل ان لم يترك ابنه الرحيم المشفق عليه السلام دعوته ونشرها بين الناس، قال تعالى عن الخليل عليه السلام: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا }[١].

فهاهنا مدعو منحرف في اعتقاده وتصوره، وداعية يدعوه الى تصحيح هذا الانحراف بذكر الدلالة على فساد عبادة الأوثان وأردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ وقرنها باللطف والرفق واللين، فما كان من المدعو الوالد الا أن قابل تلك الدلائل العقلية الصحيحة –بأسلوبها الرائق– بجواب حجته التقليد فأصر على ادعاء إلهيتها جهلاً وتقليداً، وقابل الوعظ بالسفاهة والتهديد بالضرب والشتم، وقابل الرفق واللين بالعنت والتعنيف حيث لم يقل له: يا بني، ثم إن الابن الرحيم عليه السلام لما سمع من الاب الجاهل العنيد ذلك أجاب بالتباعد إظهارا للانقياد لأمر الوالد برا ومقابلة الإساءة بالعفو إحسانا استمالة له، وأنه وإن بعد عنه فأشفاقه باق عليه كما كان وهو قوله: (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) أي أطلب منه لك المغفرة من هذا الكفر، بأن يهديه الله إلى التوحيد فيغفر له الشرك الماضي، إظهارا منه حرصه على هداية أبيه[٢].

وموقف آخر لنبي عظيم آخر تظهر أن هذا الاسلوب هو اسلوب منهجي لا طارئ يخضع لمناسبة المقام بل يؤكد على صلاحيته في كل زمان ومكان ومع كل انسان، وهو موقف لشدة عظمته تحار له العقول وتبهت عنده الفهوم، ويخجل كل من قابل الجاهلين باي نوع من الشدة والغلظة حتى لا يبقى لمعتذر عذرا، لأنه لا يقبل التأويل ولا يندفع بتحليل هذا الموقف هو للرسول الكريم محمد ﷺ، يقول سهل ابن سعد رضي الله عنه : شهدت النبي ﷺ (يعني يوم احد) حين كسرت رباعيته وجرح وجهه وهشمت البيضة على رأسه وإني لأعرف من يغسل الدم عن وجهه ومن ينقل عليه الماء وماذا جعل على جرحه حتى رقأ الدم ؟ كانت فاطمة رضي الله عنها بنت محمد رسول الله ﷺ تغسل الدم عن وجهه و علي رضي الله عنه ينقل الماء إليها في مجنة فلما غسلت الدم عن وجه أبيها أحرقت حصيرا حتى اذا صارت رمادا أخذت من في ذلك الرماد فوضعته على وجهه حتى رقأ

(١) [مريم: ٤٤ – ٤٧].

(٢) ينظر، مفاتيح الغيب: ٢١/١٩٤–١٩٥، والتحرير والتنوير: ١٦/ ١٢١.

الدم ثم قال يومئذ : (اشتد غضب الله على قوم كلموا وجه رسول الله ﷺ ثم مكث ساعة ثم قال : (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[١].

فيا ليت شعري هل يفقه الدعاة والمصلحون هذه الدروس الثمينة في اصول التعامل مع المدعو المعاند الجاهل والتي تقوم على مقابلة العنف باللين، والشدة بالرفق، والسفاهة بالحلم، والوعيد والتهديد بالتجاوز وحب الخير وطلب المغفرة، والتي هي في النهاية أخلاق تدعو المقابل المعاند الى أن يقف منها موقف الاعجاب والاهتمام الذي يلين القلوب القاسية ويستميلها نحو الانصات الى صوت التصحيح، والاذعان الى نداء التغيير، اما الاهمال لهذا الجانب العظيم من التعامل مع المدعو المخالف فلابد أن يقابَل بمضاعفة جانب الصد والاعتراض الذي يوغر الصدور، ويزيد الوحشة ويضاعف الشحناء، ويمهد الطريق لزيادة فرص التصادم الذي يهدد بتفكك أمن المجتمع وسلمه المدني. وبالتالي تتهشم روابطه، وتقطع أرحامه، وتفرق جمعه، وتمزق كلمته .

المطلب الثامن: من الاعذار للمخالفين مقابلة أذاهم بالسلام والتحية

إن لرسوخ المفاهيم وثباتها في نفوس الناس –وإن كانت خاطئة– لها من المكانة القيمية ما يحوطها ويحميها من كل فكر، أو مفهوم دخيل وطارئ عليها، ولما كان من عادة المخالفين المتعصبين لأفكارهم أنهم كلما أفحموا بالحجج القاطعة لجئوا إلى استعمال العنف[٢]، وإظهار الاعتراض الذي هو في حقيقته دفاع عما يعتنقونه من مبادئ وتصورات فكرية يقومون بحمايتها بالأساليب المتوفرة، والتي عادة ما يكون في مقدمتها اسلوب الشدة في الرد على حجج الاصلاح لأفكارهم عن طريق السب والشتم والفحش والتهديد والوعيد، والذي يضعف شيئاً فشيئاً عن طريق تخفيف فورة هذا العنف وتوهين شدته .

وأعظم ما يقابل به هذا الاسلوب التعسفي ويخفف وطأته هو ابداء الحلم على مظاهر الجهل ومقابلته باختيار خطاب مناسب لاحتمال الأذى الصادر عن الخطاب الفاحش المؤلم والمؤذي للنفوس، وذلك لا يكون الا بإتحاف المخالف بما يؤلف قلبه بألفاظ المداراة التي تظهر جانب الائتمان ولا أحسن لفظا من القاء السلام والتحايا والاعراض عما بدر من جهل وفحش من المخالف .

والسلام مَصدَر سَلَّمت على أنَّه دعاءٌ للإنسان، والمعنى كما أننا مسالمون لكم في القول والفعل نطلب منكم السلامة فيهما، ويجوز أن يكون بمعنى التحية الذي يؤذن بالتأمين، وعدم الإهاجة، والاستعداء، والسلام الذي هو بمعنى التأمين: يكون أول ملاقاة المرء من يريد إكرامه[٣].

---

(١) المعجم الكبير الطبراني: ٦/ ١٦٢.

(٢) ينظر، أضواء البيان: ٣/ ٤٢٧.

(٣) ينظر، تهذيب اللغة: ٣٠٩/١٢، والمفردات في غريب القرآن: ٢٤٠، والتحرير والتنوير:١٩/ ٦٩.

وفي القران الكريم أربع آيات تظهر هذا المنهج العظيم في كيفية مقابلة اسلوب الجهل وارادة الاذى والنكاية بالداعي بأسلوب الحلم والسلام وارادة الخير بالمدعو .

١- القاء السلام ردا على سفاهة المخالف بالوعيد والتهديد بالقتل مالم ينتهي عن دعوته، قال تعالى: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} [مريم: ٤٧]

ففي الآية بيان التعامل الامثل في اقامة الحجة لمحاولة التصحيح الفكري والعقائدي من الداعية، والكيفية الواجب تحقيقها في مقابلة جهل وسفه المخالف المتوعد والمتهدد بالشتم والرجم والتي تكون بإلقاء السلام عليه كما قال الخليل عليه السلام لأبيه: (سلام عليك) وهو سلام برّ ولطف، ودعاء له بالسلامة استمالة له، وهي مقابلة سفاهة الجاهل بالحلم، وتسليمه من مخاطبته وعدم جوابه بمثل سفاهته وهي الشتم والسب بما يكره، وتأمين جانبه بعدم المقابلة بنفس ما توعد عليه بالعقوبة(١).

٢- القاء السلام أثناء الحوار ومراجعة كلام المخالف في خطابه القائم على الايذاء والابداء بما يُكره من الكلام، قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}(٢) أي: وإذا خاطبهم الجاهلون بالله بما يكرهونه من الكلام والسفه عليهم بالقول المؤذي، أجابوهم بالمعروف من القول، والسداد، والقاء السلام، ولم يقابلوهم بمثل سفاهتهم، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً بل راجعوهم بكلام يسلمون فيه من الإثم ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، وهذا مدح وحث لهم على الحلم الكثير ومقابلة الاساءة بالإحسان والعفو عن الجاهل، والتنبيه على أن هذا التصرف يعبر عن رزانة العقل الذي يوصل صاحبه إلى هذه المثالية في التعامل؛ لأنّ غض الطرف عن السفهاء، وترك مقابلتهم بالمثل، والقاء السلام أثناء جهالتهم في الخطاب مستحسن عقلا وأدبا ومروءة وشرعا، وأسلم للعرض والورع، وأضمن لاستدامة السلم والامان في المجتمع أثناء محاولة اصلاح أفكاره، والذي هو الركيزة الاساس في ضمان ديمومة محاولات التغيير والاصلاح في المجتمع(٣).

٣- القاء السلام على ما يظهر من لغو ولغط المخالفين عند ارادتهم التعمية والحيلولة دون السماع والاصغاء لكلام الداعي لهم، قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ }(٤)، ثم جاءت الآيات التي تبين ما هو الاسلوب الناجع في التعامل

---

(١) ينظر، تفسير الطبري: ١٨/ ٢٠٧، والكشاف: ٢٣/٣، وتفسير الخازن: ٢٤٨/٤، وتفسير السعدي: ٤٩٤.

(٢) [الفرقان: ٦٣] .

(٣) ينظر، تفسير الطبري:١٩/ ٢٩٥، والكشاف: ٢٩٧/٣، وتفسير ابن كثير:٣/ ٣٩٥، وتفسير السعدي: ٥٨٦.

(٤) [فصلت: ٢٦] .

مع هذه السفاهة باللغط واللغو من المخالف اثناء شغبه كما قال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}[١].

فهاهنا ثلاثة اصول نبهت عليها الآية، الاول: الاعراض عن اللغو الذي هو الكلام الباطل الذي لا طائل تحته، وعدم الاصغاء والاهمال بالكلية لإصحابه على ما فيه مما يؤذي بالقول وما يكره منه في الأنفس. الثاني: إجابة اللغو بالجميل من القول، وهو قولهم:(لنا أعمالنا) التي قد رضيناها لأنفسنا،(ولكم أعمالكم) التي رضيتم بها لأنفسكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا الخلق اللئيم والمرتع القبيح اللئيم، ففيه تنزيه الأنفس عن لغو الجاهلين، وصونها عن الخوض فيه. الثالث: القاء السلام في مقابلة لغوهم، والمعنى: أنكم في سلام منا عليكم من أن نسابكم، أو تسمعوا منا ما لا تحبون، فلا تسمعون منا إلا الخير، ولا نقابلكم بمثل جهلكم بل ندرأ السيئة بالحسنة والتي هي من أعظم خصال الخير وادعاها إلى حسن الالفة والمعاشرة قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}[٢]، ففيها عدم الرد على جلافة ولغط السفهاء بالمثل، ولكن بالإعراض والتغافل مع كلمة جامعة للإحسان وهي قول: سلام عليكم، والتي من فوائدها دفع مضرة الجاهل المسيء عن نفس الداعي، وإسداء الخير، ودفع المضرة عن عموم أفراد المجتمع بترسيخ الامن والسلم فيه، وحفظه من الضياع الذي يسببه التشغيب واللغط من سفه المخالفين ورعونتهم[٣].

٤- مقابلة تكذيب المخالفين -وصدهم وقسوة عنادهم وأذيتهم القولية والفعلية- بالسلام والصفح عنهم وترك عقوبتهم حتى ولو بالدعاء عليهم، أو تمني الانتقام منهم . قال تعالى: {وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}[٤].

فهذا قسم بنداء الرسولﷺ ربه نداء المضطر، وبمقام من أعيته الحيلة فيهم، وتفويض أمره إلى ربه فأقسم الله تعالى بتلك الكلمة والتي مبناها اليأس من إيمانهم، والذي يعني الدعاء عليهم والاستعجال في طلب عقوبتهم، وهو ما ينافي العزم والحلم عليهم، فأمره ربه سبحانه بالإعراض عما يدب في النفس من اليأس والضجر والتشكي والتحزن، والتحسر على إصرار المخالفين وتكذيبهم، وعدم تجاوبهم بل وأمره بالصفح عنهم وفي ضمنه منعه من أن يدعو عليهم بالعذاب، والصفح هو الإعراض أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الألباب

---

(١) [القصص: ٥٥] .

(٢) [فصلت: ٣٤]

(٣) تفسير الطبري (١٩/ ٥٩٨) تفسير السعدي (ص: ٦٢٠) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٤٥)

(٤) [الزخرف: ٨٨، ٨٩]

والبصائر الجاهلين، وهو السلام في المجادلة وتركها، والامان لهم من مجازاتهم بالسوء، أي سلمتم منا لا نسافهكم، ولا نعاملكم بمثل ما تعاملوننا[١].

ومن التعاليم النبوية في الآداب التربوية للإصلاح والدعوة في هذا الباب ما رواه البخاري عن عائشة ﵂ زوج النبي ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم قالت عائشة ﵂ : ففهمتها، فقلت: وعليكم السام واللعنة قالت: فقال رسول الله ﷺ : مهلا يا عائشة ﵂ إن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله أولم تسمع ما قالوا . قال رسول الله ﷺ: قد قلت: وعليكم)[٢].

ففي الحديث مقابلة سفاهة المخالف الجاهل بالرفق واللين، والحض على محاسن الأخلاق معهم وإن أساءوا، وترك فحش الكلام وإن ظهر منهم الفحش والسباب، والتغافل عن سفاهتهم وجهلهم، كما قيل : العاقل الفطن المتغافل، وتعظيم النفس بتغافلها، والمعارضة بالتي هي أحسن، والصبر على أذى من ترجى فيه رجوعه وائتلافه للخير، وقد كان النبي ﷺ يتألف المخالفين بالأموال الطائلة، فكيف بالكلام الحسن الهين اللين[٣].

وقد يعارض هذا الحديث بالحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه)[٤].

واحسن ما يجمع بين النصوص هو أن النهي في حديث أبى هريرة ﵁: (لا تبدؤوهم بالسلام) إنما هو في ابتداءهم بالسلام لغير سبب يدعو إلى ابتداءهم به: من قضاء ذمام، أو حاجة تعرض لكم قبلهم، أو حق صحبة في جوار، أو سفر، أو كان سلامهم لمصلحة التآلف[٥].

واحسن ما روي في بيان فضل الصابر على أذى الساب والمؤذي هو ما رواه احمد عن النعمان بن مقرن المزني﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: وسب رجل رجلا عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: " أما إن ملكا بينكما يذب عنك كلما يشتمك هذا، قال له: بل أنت وأنت أحق به، وإذا قال له: عليك السلام، قال: لا بل لك أنت، أنت أحق به"[٦].

به"[٦].

---

(١) ينظر، الكشاف: ٢٧٠/٤، ومفاتيح الغيب: ٢٠١/٢٧، وتفسير ابن كثير: ١٦٦/٤، وتفسير السعدي: ٧٧٠، وأضواء البيان: ١٧٠/٧، والتحرير والتنوير: ٢٥/ ٢٧٣- ٢٧٣.

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ١٢ رقم: ٦٠٢٤، كِتَاب الْأَدَبِ باب الرفق في الأمر كله .

(٣) ينظر، إكمال المعلم شرح صحيح مسلم: ٧/ ٢٥.

(٤) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٠٧.

(٥) ينظر، فتح الباري: ١١/ ٤٣، وشرح البخاري لابن بطال: ٩/ ٣٥، وطرح التثريب: ١٠٥/٨ .

(٦) مسند أحمد: ١٥٤/٣٩.

الخاتمة واهم النتائج

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ففي خاتمة هذا البحث لابد من التنويه الى اهم ما تضمنه من نتائج يمكن تلخيصها بما يأتي:

١- ان الاصل في الناس الجهل في التصورات والمفاهيم والتي هي الاساس والدافع في تصرفاتهم السلبية تجاه الداعي او المربي فلا يجوز التعامل معها على ان المقصود فيها التعمد للسلبية بل هي عفوية مبنية على حسن النية المرتبط بسوء الفعل الذي مبناه الجهل .

٢- ضرورة تكريس مبدأ الاعذار لدى الداعي والمربي في كل ما يأتي ويذر أثناء قيامه بعملية التغيير والاصلاح العقائدي والفكري وتقديمه على كل ردود الافعال التي تفرزها تداعيات التعامل مع أخطاء الناس .

٣- تعميق مبدأ الاعذار في المحبة والرحمة للمخالفين واستصحابهما على طول مراحل التغيير والاصلاح على اعتبارهما من أهم مقومات المطاولة للمربي والداعي التي تضمن الاستقرار النفسي له والابتعاد عن شعور اليأس والجزع الذي تخلفه فقدانهما أو احدهما .

٤- التأكيد على أهمية العفو والصفح في مقابلة جهل المخالفين وأنه الانجح والانجع في دعوة التغيير والاصلاح الفكري والعقائدي، وأن استبدالها بمقابلة المخالف بالمثل له نتائج عكسية يكون مردودها على الداعي نفسه، وعلى المجتمع الذي يعيش فيه .

٥- إظهار أهمية الدعاء والاستغفار للمخالفين ودوره في زيادة شعور الشفقة والرحمة في نفس الداعي، وطرد كل ما يمكن أن يكون سببا في شرخ العلاقة بين الداعي والمدعو، والقطع لدواعي النفس في نمو الكراهية والحقد على المخالفين في حال صدهم واعراضهم .

٦- اثبات أهمية مقابلة السب والشتم من المخالفين بعبارات السلام والتحية التي تخفف من وطئة تلك العبارات وشنائتها، وقطع دابر الشر المتولد من تلكم المواقف .

٧- اثبت البحث أن تحلي الداعي والمربي بما تقدم من صفات عن طريق التخلق والعمل بها هو الضمان الاكيد للسلم والامن المجتمعي أثناء التعامل مع جهل المخالفين، وأن الاهمال أو التجاهل لها له عواقبه الوخيمة والنتائج السلبية الجسيمة التي تهدد بخطر انتشار الفوضى التي تأتي على الاخضر واليابس .

المصادر

١. القرآن الكريم

٢. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد، أبي الفيض الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية .

٣. التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر – بيروت ، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ.
٤. كتاب العين، الخليل بن أحمد أبي عبد الرحمن الفراهيدي، تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال .
٥. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس أبي الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٦. كتاب الكليات، أيوب بن موسى أبي البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
٧. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبي عبدالله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت .
٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة – بيروت ، ١٣٧٩.
٩. المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ، دار الفكر – بيروت .
١٠. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .
١١. مجموع فتاوى، محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن – دار الثريا، ١٤١٣ هـ .
١٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبي السعود، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٣. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحيى بن شرف أبي زكريا النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ .
١٤. أحكام القرآن لابن العربي
١٥. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر أبي القاسم الزمخشري، دار إحياء التراث العربي – بيروت .
١٦. تفسير القرطبي محمد بن أحمد أبي عبد الله القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض– المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م .
١٧. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر أبي الفداء بن كثير، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .
١٨. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ .
١٩. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير أبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .
٢٠. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ .
٢١. مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .

٢٢. أضواء البيان، محمد الأمين المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ مـ .
٢٣. شرح البخارى، علي بن خلف أبي الحسن بن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد – السعودية – الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م .
٢٤. روح المعاني، محمود أبي الفضل الألوسي، دار إحياء التراث العربي – بيروت .
٢٥. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد أبي القاسم الطبراني، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم – الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م .
٢٦. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد أبي منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠١م .
٢٧. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد أبي القاسم، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة – لبنان.
٢٨. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م .
٢٩. إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، أبي الفضل عياض اليحصبي .
٣٠. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبي الحسين النيسابوري، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت .
٣١. طرح التثريب، عبد الرحيم بن الحسيني أبي الفضل، تحقيق: عبد القادر محمد علي ، دار الكتب العلمية – بيروت، ٢٠٠٠م .
٣٢. مسند أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل أبي عبد الله الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد ، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م